الحياء
في
الشعر الجاهلي

د. روحي ثروت زيادة

كلية العلوم الإنسانية جامعة الاستقلال

ملخص

تناولت هذه الدراسة موضوع الحياء في الشعر الجاهلي، وقد تمت دراسة الموضوع ضمن ثلاثة محاور، المحور الأول: مقدمة الدراسة :تعريف الحياء ومرادفاته في المعاجم العربية، أما المحور الثاني فتناول الحياء عند النساء في القصائد الجاهلية، وتحليلها، أما المحور الثالث فتناول الباحث الحياء عند الرجال.

وقد استخدم الباحث في هذا الموضوع المنهج التحليلي. وخلص البحث إلى أن خلق الحياء من أجمل ما تزين به العربي فهو خلق متأصل جاء الإسلام وعززه بقوله صلى الله عليه وسلم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وليس الحياء مقصورًا على النساء فقط بل يعتز به الرجال ويتغنَّى به المجتمعون، فلا يقال الفحش في مجالس الرجال.

Modesty in Pre-Islamic Poetry

Abstract

This study examined a new topic of poetry in pre-Islamic era, which is the subject of modesty in pre-Islamic poetry, this study has been studied within three dimensions first one search addressed the definition modesty and its synonyms in Arabic dictionaries, the Second dimension handled Researcher has adopted in dealing with this issue on the approach: analytical.

The research found that the ethic of the modesty is one of thing that beautifies Arab. It is a unique ethic that Islam fetches. It is reinforced by saying peace be upon him "I was sent to complete the good morals."

الحياء لُغةً:

الحياء : **أصله من (ح ي ى)، وقيل: من (حيا)، وقيل من (ح ي و). وهو مصدر قولهم: (حيّي). (وحيى منه حياء) بالفتح والمد فهو حيي على وزن فعيل. يقال: استحيا الرجل يستحي معًا، والأول أعلى وأكثر، والحياء على الأصح مشتق من الحياة 1 أما الحياء عند ابن منظور فهو: من التوبة والحشمة، وقد حيي منه حياء واستحيا واستحى، وقد حذفت الياء الأخيرة كراهية التقاء الياءين ، ويدل الحياء على الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة2 ، وقد يقابله البذاءة 3 أي الفحش. وفي المعجم في مادة (استحيا) قال: استحيا فلان فلانًا، خجل منه، وفي مادة (الحياء): الاحتشام4.** قال الأخفش: **وهو الانقباض والانزواء.**وقيل الحياءُ: **بالمدِّ التوبة والحشمة 5.**

الحياء اصطلاحًا: **وردت في تعريفه عبارات كثيرة ولكنها في العموم متقاربة المعنى، ومن خلال هذه الدراسة سيتم إيضاحها،** :الحياء: **هو انقباض النفس عن القبائح 6.** وقيل الحياء: **هو انقباض النفس عن القبيح وتركه لذلك، ومن القبيح حياء انقبضت نفسه ومن الرجل احتشم فهو حيي7.**وقيل الحياء: **هو تغير وانكسار يعتري ويصيب النفس بسبب فعل مذموم أو الوقوع في قبيح، أو خوف ما يُعاب. وهو خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، فعفاف الرجال والنساء شجاعة وكرم، لا، بل اعتبرت العفة من شروط السيادة والشجاعة.**

المطلب الأول : حياء المرأة كما وصفه الرجال:

وخلق الحياء الذي يتناوله هذا البحث من الأخلاق التي لم تكن معدومة في الجاهلية كما يظن بعض الناس، بل كان له وجود وأثر واضح في حياتهم ، والحياء الذي من معانيه الاحتشام والخجل8 ، من الأخلاق التي تناولها بعض الشعراء الجاهليين في أشعارهم. يقول علقمة الفحل9:

منعمةٌ لا يستطاع كلامها على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره وترضى إياب البعل حين يؤوب10

فهي تحافظ على زوجها وتصونه، وهي من منطلق العفة وقوة الإرادة لم تفش سره وحفظته في غيابه عنها وأنها تسعد به حين يعود لها. والبيتان كناية عن العفة والصون والحياء والإخلاص للزوج والعلاقة الزوجية،وهذا الشنفرى 11 يقول :

]فَيا جارَتي وَأنتِ غَيرُ مُليمَةٍ]إِذ ذُكِرتُ وَلا بِذاتِ تَقَلَّت

]لَقَد أعجَبَتني لا سَقوطاً قِناعُها]إِذا ما مَشَت وَلا بِذاتِ تَلَفُّتِ

تَحُلُّ بِمَنجاةٍ مِنَ اللَومِ بَيتَها إِذا ما بُيوتٌ بِالمَذَمَّةِ حُلَّتِ

كَأَنَّ لَها في الأَرضِ نِسياً تَقُصُّهُ عَلى أُمِّها وَإِن تُكَلِّمكَ تَبلَتِ

أُمَيمَةُ لا يُخزى نَثاها حَليلَها إِذا ذُكِرَ النِسوانُ عَفَّت وَجَلَّتِ

إِذا هُوَ أَمسى آبَ قُرَّةَ عَينِهِ مَآبَ السَعيدِ لَم يَسَل أَينَ ظَلَّت١٢

فصفات المرأة التي كانت في ذلك الزمن والتي تكررت في الشعر الجاهلي الذي يعد إطارًا تبرز فيه صورة الحياء في ذلك العصر، فالمرأة بحسب

الأبيات لا تأتي ما تلام عليه ولا تحمل في نفسها بغضًا، وهي حيية تستخدم القناع على الدوام وليست من أهل الريبة وبيتها بعيد عن الذم واللوم ، وحديثها عن زوجها حديث مدح ومحبة وإذا عاد إلى بيته عاد سعيدًا بها مطمئنًا لها، وهي على ذلك من النساء العفيفات الجليلات فلا يسقط قناعها لشدة حيائها، لأنها لا تكثر التلفت؛ فإنه من فعل أهل الريبة، وهي ليست كذلك. والعجب إذا رافق الإعجاب يكون شيئًا فريدًا، فهذا الإعجاب من ذلك الشاعر الصعلوك الجاهلي المتمرد على الأعراف والقوانين كُلّها إلا تلك، لأنها تكاد تكون شيمةٌ لا يمكن الاستغناء عنها ولا تستوي الحياة بدونها، خلق تربى عليه العربي ولم ينفك يتمسك به تمسكه بصحرائه وعشقه لها ولجفافها. فهي عفيفة حيية وكأنها من شدة حيائها، إذا قامت ومشت تحسبها تبحث عن شيء أضاعته لا ترفع رأسها ، وعيناها في الأرض غير متلفتة يمنة ويسرة، وهذا دليل على شدة حيائها. وهي صفة محمودة في النساء حتى يومنا هذا، وفوق ذلك هي عفيفة اللسان طيبة الصيت، إذا ما ذكرت حمدت لجمال خُلقها وخَلْقها ، ويقول حاتم الطائي ١٣

إذا ما بت أختل عرس جاري ليخفيني الظلام، فلا خفيتُ

أأفضح جارتي وأخون جاري؟ معاذ الله أفعل ما حييّتُ ١٤

ومن رفيع الحياء القول الحسن، وها هو (سويد بن أبي كاهل) يصف محبوبته تغزلا قائلًا: إنك تسمع من تحدثها قولًا حسنًا لطيفًا، لا، بل لو أرادوا غيره من الكلام القبيح لا يمكن أن يجدوه عندها لأنها حيية عفيفة انعكس حياؤها على قولها، كما انعكس على تصرفاتها وحركاتها، فيقول:

تسمع الحدّاث قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يستمع ١٥

ويصف (الأعشى) محبوبته (هريرة) بأجمل وصف يعجب الرجل العربي بما يضفي عليها من ثياب العفة والحياء، فهي مقتصدة في مشيتها تمر حين تذهب لبيت جارتها، غير متلفتة يمينًا ويسارًا، غير متقصعة لتلفت أنظار الرجال إليها، ولا مسرعة كمرِّ الهارب الذي يخشى أن يراه الناس، بل هي واثقة من نفسها، خجولة حيية، كما السحابة فيقول:

كأن مشيتها من بيت جارتها مرُّ السحابة لا ريثٌ ولا عجلُ ١٦

ومحبوبة الأعشى حياؤها وعفتها منعاها من إفشاء أسرار جيرانها، وذكرهم بسوء في غيبتهم، فهي تكتم السر، فلهذا يحبها جيرانها :

ليست كمن تكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختتل. ١٧

(والسليك بن السُّلكة) في إحدى غاراته يحتمي في بيت امرأة يقال لها فكيهة، استجار بها فحمته وجعلته تحت درعها، وحملت سيفًا تدافع عنه، وكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بأخوتها فجاءوا ودافعوا عنها وعنه، فيصفها بأجمل صفة كانت تعتز بها العرب، ألا وهي الحياء والعفة والشرف وفي ذلك يقول:

لعَمرُ أبيك والأنباء تنمي لَنِعمَ الجارُ أُخْتُ بني عُوارا

مِنَ الخفراتِ لم تفضح أباها ولم ترفع لأخوتها شنارا ١٨

فهي فتاة حيية عفيفة شريفة، ترفع رأس أهلها عنان السماء لم تجلب لهم عيبًا ولم تخلق لهم عارًا. والتغني بالحياء المتمثل بالسكوت الطويل، والصوت المنخفض عند التحدّث، والاستتار عن أعين الرجال الأغراب، وعفة الخلق ورزانة العقل ورجاحة الرأي– كل ذلك كان من شيم العربي في العصر الجاهلي فها هو (أوس بن حجر) يتغنى بذلك صراحةً قائلًا:

ولم تلهها تلك التكاليفُ إنها كما شئت من أكرومة وتخرُّد

هي ابنةُ أعراقٍ كرامٍ نمينها إلى خلقٍ عفٍّ برازته قد ١٩

أي أنها تكفيك منها العفة ووثوق الرأي وشدة الحياء. وفي موضع آخر يشير أوس بن حجر إلى ذلك صراحة ممزوجة بالإعجاب بحسن خلق من يحبها قائلًا:

غر غرائر أبكار نشأن معًا حُسن الخلائق عما يتقى نورُ

لبسن ريطًا وديباجًا وأكسيةً شتى بها اللون إلا أنها فورُ ٢٠

يصفها بأنها حيية شريفة، لم تخالط الرجال محافظة على شرفها، تفرُّ من الريبة أو مما يسوؤها. وإن لبسن الديباج والخز لا يتبخترن في مشيتهن ليُمِلْن الرجال إليهن ولا يخرجن عن حد الحياء، وهن قليلات الكلام لا يذاع لهن سرّ ولا حديث. والحياء كما مرّ في شعر الصعاليك ليس مقتصرًا على النساء من باب الإجبار ويتركه الرجال من باب التسلط كما يُشاع. بل الرجال مطلوب منهم التحلي بكل صفات العفة والحياء كما هو مطلوب من النساء، ولعلَّ هذا يكون من باب النظرة الشاملة للأخلاق التي لا يمكن أن تتجزأ. ويشير المهلهل إشارة واضحة إلى خلق الحياء الذي طالما اتصفت به نساؤهم، فلم تكن النسوة يخرجن حواسر كاشفات وجوههن، بل كن أحرص الناس على تخبئة وجوهن وجمالهن عن الرجال الأغراب، ولكن حزنهن على كليب أنساهن، لا، بل أخرجهن عن هذا الخلق، فمن شدة الصدمة ومن ألم الحزن خرجن هذه المرة حواسر غير مقنعات يخمشن وجوههن ويندبنه، فيقول المهلهل:

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بنصف نهار

قد كن يخبئن الوجوه تسترًا والـيوم حين بدون للنظار

يجد النساء حواسرًا يندبنه يضربن أوجههن بالأحجار.٢١

فهو يستحق منهن البكاء والخروج عن قواعد الحياء، وكأنهن يُعْلِنَّ حالة الاستعداد للذل القادم والهوان المنتظر، وكأن تلك القيمة العظيمة قد دمرت بموت كليب، قيمة الحشمة والحياء المرتبطة بشرف القبيلة ، فهو الحامي لنساء الحي من السبي، وبموته آلت كل الأمور مستباحة.

المطلب الثاني : حياء الرجال

وليس الحياء مقصورًا على النساء فقط، بل يعتز به الرجال ويتغنى به المجتمعون، فلا يقال الفحش في مجالس الرجال، بل الكلام الرزين وهذا الحياء يتلازم مع كرم النفس والبذل والعطاء ونبذ البخل والبخلاء، وكلّها قيم متلازمة إن وجدت توجد مجتمعة وإن فقدت تفقد مجتمعة، يؤكد هذا (طرفة بن العبد البكري) بقوله:

لا يقال الفحش في ناديهم، لا ولا يبخل منهم من يسل.٢٢

حتى في سكرهم، وضياع عقلهم بعد الشرب والمدامة، يحافظون على محامد الأخلاق، ويكفون عن المثالب والفواحش، فلا يهمهم ذهاب أموالهم في الشرب والسكر، فهي إنما جمعت لهذه الغاية؛ ولكنهم يفتخرون بحرصهم على مكارم الأخلاق وطيب الشمائل حتى بعد غيبوبة السكر فهذا (عنترة بن شداد) في معلقته يتغنى بذلك بقوله:

فإذا شربت فإنني مستهلكٌ مالي، وعرضي وافر لم يُكلمِ.٢٣

ومهما بلغ العربي من الغنى فلا ينسيه المال حياءه وعفته، بل يبقى محافظًا عليهما مثل ورث ورثه أو كنز يعتني به، كما لا توهن عزيمته نوائب الدهر فيبقى صبورًا متجلدًا، وكأن الأخلاق الحميدة لا تكون إلا مجتمعة يرفد بعضها بعضًا كما تكون المثالب السيئة مجتمعة، و(حسان بن ثابت) الشاعر المخضرم الذي أدرك الجاهلية والإسلام يأبى أن ينسيه ماله حياءه فيقول:

فلا المال ينسيني حيائي وعفتي ولا واقعات الدهر يفللن مبردي.٢٤

فالحياء ليس للنساء فقط، كما هو ليس للفقراء دون الأغنياء كما يعتقد البعض، بل هو زينة للغني والفقير معًا وللرجل والمرأة سواء، بل قد يفوق الرجل المرأة في حيائها، ولكن ذلك الحياء لا يفقده رجولته وشجاعته، فهو يجمع بين جميع الخصال الحميدة ، فمالك بن نويرة في نظر أخيه (متمم بن نويرة) أحيا من فتاةٍ حييِّة، وأشجع من أسد في عرينه مهاب لا يجرؤ أحد على منازلته فانظر إليه يبكيه قائلًا:

فتىً كان أحيا من فتاةٍ حييةٍ وأشجع من ليثٍ إذا ما تمنعا.٢٥

واقتران الحياء هنا بالشجاعة ليس غريبًا أو مستهجنًا، بل يثبت ما توجه إليه البحث من اقتران محامد الأخلاق بعضها ببعض، فهي إن اجتمعت تجتمع كلها، وإن اختفت تحل محلها مثالب الأخلاق وسيئها. وعروة بن الورد الصعلوك يفخر بأنه يترفع عن النظر إلى جارته معتبرًا ذلك من العفة وشيم الرجال، فهو لا يهتك عرض جارته بخائنة الأعين أو استراق سمع بل يجمل نفسه بقوله:

وإن جارتي ألوت رياح ببيتها تغافلت حتى يستر البيت جانبه٢٦

هي الشهامة والشجاعة إذا رافقها الحياء والحشمة والعفاف، وحقًا إن الأخلاق لا تتجزأ. فها هي الشجاعة تقترن بالحياء، والكرم يقترن بالعفة، والرجولة تقترن بالحشمة، ومن هنا بدأ بناء العقل العربي بتلك اللّبنات ليكون المجتمع العربي المؤسس بأساسات لاستقبال الدعوة الجديدة، والدين المنتظر. ويقول عنترة العبسيّ

هلّا سألت الخيل يا ابنة مالكٍ إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقائع أنني أغشى الوغى وأعفُ عند المغنمِ

فأرى مغانم لو أشاء حويتها ويصدني عنها الحياء تكرمي٢٧

أعف عن المغانم وأنا قادر على أخذها حياءً وتكرمًا، يريد أن يقرر خُلقًا خاصًا بالفارس وهو إظهار القوة والشجاعة والترفع عن الكسب المادي حياءً وتكرمًا، ويمكن القول بأن هذا الخلق كان معيارًا جاهليًا لأخلاق المقاتلين الفرسان وقيمة من قيمهم التي يفتخرون بإظهارها والتمسك بها. وفي قصيدة أخرى له يقول فيها:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها٢٨

إنه يمتنع عن زيارة بيته أثناء غيابه محافظة عليها وصيانة لعرضه وعرضها.وغض الطرف: غض البصر وهو كناية عن العفة، فهو يغض بصره إذا بدت له جارته حتى تدخل منزلها فيواريها، وعنترة بن شداد الرجل الصلب الشجاع الذي حصد رؤوس أعدائه لكنه وقف قويًا حينما بدت له جارته معتبرًا ذلك من شيم الرجال والغيرة على الأعراض. وهذا عبيد بن الأبرص٣٣ يقول:

لعمرك إنني لأعفُّ نفسي واستر بالتكرم من خصاص

وأكرم والدي وأصون عرضي وأكره أن أعدَّ من الحراص٢٩

فيمنع نفسه عما لا يحل، ويستر فقره بالتكرم، ويكرم والده ويحافظ على عرضه ويكره أن يسمى بخيلًا. ويتجه البيتان اتجاه الشعر الجاهلي من حيث القيم التي يتمسك بها الجاهلي وهي العفة وستر الفقر بالتكرم وإكرام الوالدين وصون العرض. وفي قصيدة أخرى للشاعر ذاته يتحدث فيها عن الحياء فيقول:

فارفضي العاذلين واقني حياءً لا يكونوا عليك خط مثالِ٣٠

فيدعوها لأن تلزم الحياء وأن ترفض أقوال العاذلين وأن لا تأخذ بأمثالهم ولا تفعل فعلهم. كما يدعوها إلى أن تستحي مما تقول فذاك أمر طبيعي لا يستحي أحد منه ولا يعد عيبًا ويطلب منها أن تبتعد عن حياة الضلال التي تعيشها. ٣٦

ويقول عبيد بن الأبرص أيضًا في إحدى قصائده:

ما الطرف مني إلى ما لست أملكهُ مما بدا لي بباغي اللحظ طماح

ولا أجالس صُبّاحًا أحادثهم حديث لغوٍ فما جدّي بصباح٣١

يقول:إنه لا يطلب ما لا يملك ، ولا يطمع فيه ولا يتحدث في المعاصي ،لأن أخلاقه تمنعه من ذلك. فيستحي من الخوض في لغو القول. ويقول الشاعر أمية بن أبي الصلت ٣٢ في إحدى قصائده مادحًا عبد الله بن جدعان لما يتصف به من الحياء والكرم والأخلاق الفاضلة:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياءُ

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاهُ من تعرضه الثناءُ٣٣

كانت مناسبة هذا النص أن عبد الله بن جدعان كان يقول من كانت له حاجة فليقف أمامي فقط ولا يتكلم، أنا أعطيه حاجته (كي لا يذهب ماء وجهه) فالشاعر يصف ميزة في ممدوحه وهي الحياء. فهذا الرجل أول ما يسمع الثناء فقط يعرف أنه رجل محتاج فلا يحوجه إلى السؤال. فهو معجب صدقًا بحياء وكرم عبد الله بن جدعان. أما الخنساء٤١ فتصف أخاها صخرا في معرض رثائها له فتقول:

لم تره جارةٌ يمشي بساحتها لريبةٍ حين يخلي بيته الجار.٣٤

تفخر هنا الخنساء بأن أخاها صخرا عفيف وحيّي يحافظ على الجارة حين يغيب زوجها عن البيت خاصةً، بمعنى أنه لا يحاول أن يزور أو يرى جارته إذا غاب عنها زوجها، وهي بهذا الوصف تحاول أن تبين وتؤكد لنا أن خلق الحياء والعفة كانا من القيم الجاهلية التي كان الناس يحافظون عليها ويلتزمون بها، وأنها تتكرر في معظم الشعر الجاهلي. والأخلاق تجتمع جميعًا وتفترق جميعًا، ولكنها لا تقبل القسمة على اثنين فالكرم والشجاعة والحياء والوفاء بالوعد كلها توأم، فها هو حاتم الطائي الكريم، لا، بل عنوان الكرم لا يفخر بكرمه وعطائه وبذله بقدر ما يفخر بعفته وحيائه وحفاظه على جارته، فلا يغتنم خروجها في الظلام فيراودها عن نفسها ولا يذكرها بسوء، ولا ينظر إليها بخائنة الأعين، وإنما هي في نظره أمانه يجب أن يرعاها ويحافظ عليها فيقول:

إذا ما بتُّ أختل عرس جاري فيخفيني الظلام فلا خفيتُ

أأفضح جارتي وأخون جاري معاذ الله أفعل ما حييتُ.٣٥

ومع تفاخر كثير من الشعراء في الجاهلية بذكر المرأة والتشبيب بها ومفاخرتهم بافتتان المرأة بهم وخضوعها لهم، إلا أن هذه المفاخرة لا تصل عند الكثير منهم إلى حد العهر والمجاهرة به، بل نراهم يستغلون ذلك لإظهار رجولتهم، مع حفاظهم على تجنب التبذل والتخنث باستثناء بعضهم أمثال امرئ القيس والأعشى والنابغة، الذين تمادوا في ذكر جولاتهم مع محبوباتهم ووصف مفاتنهن. ولعل عُروة بن الورد، الشاعر الصعلوك من الشعراء الجاهليين الذين اشتمل شعرهم على الآداب الإنسانية والأخلاق الكريمة، يتمتع بنفس كريمة وروح جماعية جل اهتمامها في البذل والعطاء والعطف على الضعفاء، وكان من أكثر الناس

أدبًا وأجودهم يدًا في معاملة زوجاته وأحماهم لهن من ضيم، يظهر هذا جليًا فيما أثنت عليه المرأة الكنانية، التي كان قد أسرها وتزوجها وفداها أهلها منه، فقالت فيه: "يا عروة! والله ما أعلم أن امرأة ألقت سترها على بعلٍ خيرٍ منك وأغضَّ طرفًا، وأقلَّ فحشًا، وأجود يدًا، وأحمى لحقيقة".٣٦ فهذا الحياء يعجب الشاعر لا بل يعجب كل الرجال، وهكذا نظر العرب إلى خلق الحياء نظرة إعجاب، ولعلَّ هذا الزعم من جانب الشاعر يظهر حقيقة خلقية اتصف بها العربي في الجاهلية، وسعى إليها ومارسها وافتخر بها ألا وهي الحياء والخجل والعفة والعفاف. وحاتم الطائي كريم جواد عفيف حيّي، وكما يقال فإن الأخلاق لا تتجزأ، فإذا اجتمعت في شخص كانت كاملة وإن شذت واحدة تفرقت الأخرى، وحاتم الطائي كان عفيفًا، عف عن كل ما يشين، وصان نفسه عما يدنسها، فلم يفجر ولم يتهتك كغيره من الشعراء الماجنين الذين طالما تغنوا بمحبوباتهم أمثال امرئ القيس والأعشى، اللذين تجاوزا حد الحياء والعفة في وصفهما مغامراتهما الدنيئة مع النساء، وفي زمانهم ومن بين ظهرانيهم ارتفع صوت حاتم الطائي، مفتخرًا بقيمهِ النبيلة والتي على رأسها الحياء والحشمة، معتبرًا خيانة الإنسان لجاره من أشنع الخصال فهؤلاء الذين يتسللون بنظراتهم داخل بيوت الجيران ليسترقوا النظرات الفاحشة لمن بداخلها من النساء، فيفضحون ما يجب أن يُستر، كل هذا ليس من فعل الكرام، بل هو من فعل اللئام، وهو ضربٌ من الجبن والخسّة فيقول حاتم:

كريمٌ لا أبيتُ الليل جاذٍ أُعدّد بالأنامِلِ ما رُزيتُ

إذا ما بتُّ أختلُ عِرْسَ جاري ليخفيني الظلام فلا خفيتُ

أأفضح جارتي، وأخون جاري؟ معاذَ اللهِ أفعلُ ما حييتُ٣٧

وبلغ من استحياء حاتم من جاراته وحفاظه على شرفهن وعدم خدش حيائهن أنه ما مرّ ببيت واحدةٍ منهن إلّا وأدار ناظريه متغافلًا وجوههن كأن لم يرَهُنَّ، حتى التحية لا يلقيها على جارته، تحشمًا منه كيلا يستمع لصوتها، فيغره ذلك ليقترب منها طربًا أو تسنح الفرصة له للتقرب منها، وفي ذلك يقول حاتم:

وما أنا بالماشي إلى بيت جارتي طُروقًا أُحييها كآخر جانبِ 38

ثم لا تراه يتتبع أخبار جاراته، لأن هذا عنده من أقبح الشيم، ولا يفعله إلّا أرذال الرجال لتحقيق نواياهم الخبيثة، فأقسم حاتم الطائي ألا يأتي مثل هذه الأفعال المشينة ما عاش بقوله:

فأقسمت لا أمشي على سّرِ جارتي مدى الدّهرِ ما دام الحمامُ يغردّ 39

فشيمة الحياء لباس حاتم الطائي لا تفارقه طوال حياته في جميع أوقاته زانته أكثر مما زانه كرمه وسخاؤه، خلق الحياء عنده لازم يمنعه ممارسة ما يخدش حياءَه، وكم امرأة بيضاء، صبيحة الوجه يشتهى وصالها راودته عن نفسه، فأبى واستحيا أن يفكر في الأمر قائلًا:

رُبَّ بيضاء فرعها يتثنَّى قد دعتني لوصلها فأبيتُ

لم يكن بي تحرّجٌ غير أنَّي كنت خدنًا لزوجها فاستحيتُ 40

وفوق كل هذا، كان حاتم عفيفًا مع النساء، جاراته وغير جاراته حتّى حينما تغزل ترفع عن الغزل الحسي بأبيات قصيرة خاطفة يجري فيها حوارًا مع نسائه بكل عفة وعفاف. ويجد الباحث حاتم الطائي يجمع بين عفة الإزار وعفة النفس، فالمرء إذا كان همه في حياته إرضاء شهواته، يصبو إلى النساء يهتك أستارهن، فاحشًا عاهرًا لم ينل سوى الذم والصغار:

وإنك مهما تُعطِ بطنك سؤله وفرجك نالا مُنتهى الذّمِّ أجمعا

41

(والمرقّش الأصغر) أجمل الناس وجهًا وأحسنهم شعرًا يُشير إلى استحيائه من محبوبته فاطمة بعد أن صدر منه تجاهها ما يخجل فيقول:

وإني لأستحيي فطيمةَ جائعا خميصًا، وأستحي فطيمةَ طاعما

وإني لأستحييك والخرقُ بيننا مخافة أن تلقي أخًا لي صارما42

فهو يستحييها في جميع أحواله وأحوالها، جائعًا أو طاعمًا، يُعنّف نفسه لما بدر منه نحوها. وإذا اعترض أمران وكان عليك القيام بأحدهما، فاختر أقربهما إلى الخير والعفة والجمال والعفاف، بهذا يوصي (عبدُ قيس بن خفاف) ابنه من الأدب الرفيع والخلق السامي يسجل بذلك سعي العربي الجاهلي للمثل الأخلاقية السامية والتي ذروة سنامها العفة والحياء، فيقول:

وإذا تشاجر في فؤادك مرَّةً أمران فاعمد للأعفِّ الأجملِ43

وحرص العربي على شرفه وعرضه نابع من شدة حياء نسائه. ومن شدة غيرتهم على نسائهم وبناتهم أنهم كانوا يغارون عليهن أن تُرى الواحدة منهن خارج بيتها حتى ولو كانت واضعة خمارها، ولكن وبموت كليب نرى النساء يخرجن كاشفات رؤوسهن ليس خروجًا عن الحياء المعهود بينهن ولكنه ربما يكون من شدة حزنهن على كليب الذي تهون بعده كلُّ الأعراف وإلى ذلك يشير (المهلهل بن ربيعة) قائلًا:

كنا نغار على العواتق أن ترى بالأمس خارجة عن الأوطان

فخرجن حين ثوى كليبٌ حُسَّرًا مستيقناتٍ بعده بهوانِ44

أو ربما لإحساسهن بفقد الحامي والمدافع عنهن، وكأنهن يُعلن بذلك استعدادهن لحالة الذل والهوان القادمة بعد موت كليب. وهذه في نظر العربي كانت أدنى درجات الخسة والنذالة، أن يفلت بجلده ويترك عرضه يستباح، بل كان من المفروض أن يدافع عن محارمه حتى آخر رمق في حياته. وكأن (أوس بن حجر) يؤكد ذلك بتغنيه الصريح باتصافه بخلق الحياء ومحافظته على حليلة جاره عفة منه غاب زوجها أو حضر، ولا ينالها منه سوء أو فاحشة، ولا يقترف الفواحش ولا يدنس الثياب لا في ظلامٍ أو نهار. فيقول:

وليس بطارق الجارات مني ذبابٌ لا ينيم ولا ينام

ولست بأطلس الثوبين يصبى خليلته إذا هجع النيام

يقرع للرجال إذا أتوه وللنسوان إن جئن السلام 45

أما الشاعر الجاهلي أسلوم اليامي، فيقول في قصيدة له:

وتركت شرب الراح وهي أثيرةٌ والمومسات وترك ذلك أشرفُ

وعففتُ عنه يا أميم تكرمًا وكذلك يفعل ذو الحجا المتعفف 46

ترك شرب الخمر على حبها، لأن ذلك أشرف للمرء، فقد ترفع عن شرب الخمر كرمًا منه، وهو أمر يفعله ذو العقل المتعفف. يتضمن البيتان ترفعا عن شرب الخمر هذا الترفع الذي يعده الشاعر أمرا مشرفًا. وهذه إشارة واضحة إلى العفة والترفع عن الدنايا ودليل على علو الأخلاق عاليًا عند الشاعر.

الخاتمة :

الحياء **خلق يبعث على فعل كل مليح وترك كل قبيح، والحياء من الأخلاق الرفيعة التي طالما تغنى بها العربي الجاهلي وجاء الإسلام وعززها، وليس الحياء مقصورًا على النساء فقط بل يعتز به الرجال ويتغنى به المجتمعون، فلا يقال الفحش في مجالس الرجال، بل الكلام الرزين. وهذا الحياء يتلازم مع كرم النفس والبذل والعطاء، ومع تفاخر كثير من الشعراء في الجاهلية بذكر المرأة والتشبيب بها ومفاخرتهم بافتتان المرأة بهم وخضوعها لهم، إلا أن هذه المفاخرة لا تصل عند الكثير منهم إلى حد العهر والمجاهرة به، بل نراهم يستغلون ذلك لإظهار رجولتهم وإثارة الغيرة في نسائهم، مع حفاظهم على تجنب التبذل والتخنث، ومهما بلغ العربي من الغنى فلا ينسيه المال حياءه وعفته، بل يبقى محافظًا عليهما مثل ورث ورثه أو كنز يعتني به، كما لا توهن عزيمته نوائب الدهر فيبقى صبورًا متجلدًا، وكأن الأخلاق الحميدة لا تكون إلا مجتمعة يرفد بعضها بعضًا كما تكون المثالب السيئة مجتمعة، والتغني بالحياء المتمثل بالسكوت الطويل، والصوت المنخفض عند التحدّث، والاستتار عن أعين الرجال الأغراب، وعفة الخلق ورزانة العقل ورجاحة الرأي- كل ذلك كان من شيم العربي في العصر الجاهلي.**

الهوامش

١.الراشد، محمد أحمد، آفاق الجمال، ٢٠٠٢م، دار النشر: دار المحراب للنشر والتوزيع، كندا، سويسرا، الطبعة الأولى.

٢.ابن تيمية، أحمد، أمراض القلوب وشفاؤها، ١٣٩٩م، دار النشر: المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية.

٣ السمعاني، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد التميمي الأنساب، ١٩٨٨م، دار النشر: دار الفكر، بيروت، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.

٤ القرافي، أحمد بن إدريس، أنوار البروق في أنواع الفروق، دار النشر: دار عالم الكتب.

٥ بكار، عبد الكريم، بصائر في العلم والثقافة، ٢٠٠٣م، دار الإعلام للنشر، الأردن، عمان، الطبعة الأولى.

٦ القرشي، عبد الله سليم، بناء الأخلاق، ٢٠٠٤م، دار القاسم للنشر، الرياض، الطبعة الأولى.

٧ أنيس، إبراهيم، الوسيط، ص٢١٣، الجزء الأول، الطبعة الثانية.

٨ علقمة الفحل: هو علقمة بن عبده بن ناشرة بن قيس من بني تميم، من الشعراء الكبار الذين عاصروا امرأ القيس، وعمرو بن كلثوم، الذين أتيحت لهم فرصة التنقل بين مشارق الجزيرة ومغاربها ومخالطة العرب وكبارهم والاتصال بملوك المناذرة والغساسنة مما أضفى على شعره رونقًا وجمالًا. بابتي، عزيزة فوال، معجم الشعراء الجاهليين ص٢٢٨، دار صادر، بيروت.

٩ ديوان علقمة، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، مطبعة الأصيل، الطبعة الأولى، حلب، ١٩٦٩م. منعمة: أي تحيا في نعيم ورغد عيش (وهي اسم مفعول)، البعل: الزوج، يؤوب: يعود.

١٠ حرب، طلال، ديوان الشنفري، ص ٢٥/ ٣٥/ ٣٦، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م. مُليمة: اسم فاعل من ألام أي أتى بما عليه، تقلت: من القلى أي تبغضت، المنجاة: من النجوة وهي الارتفاع، النسي: الشيء المفقود المنسي، تقصه: تتبعه، أمها: قصدها الذي تريده، تبلت: تنقطع في كلامها، النثا: ما أخبرت به الرجل من حسن أو سيء، تقصه تصغير الأم، آب: رجع، قرة عينه: موضع اطمئنان، أمسى: عاد مساءً.

١١ المفضل الضبي/ المفضليات/ رقم ٢٠/ ٩٨/ النسي: الشيء المفقود، تقصه: تبحث عنه، تبلت: تنقطع في كلامها لا تطيله وقولها القول الفصل.

١٢ ديوان حاتم الطائي، ص٣١، دار صادر، بيروت، ١٩٨١م. اختل: أخدع، العرس: الزوجة.

١٣ امرؤ القيس/ ديوانه/ المعلقة/ دار صادر بيروت/ ٣٨

١٤ الأصفهاني/ الأغاني/ ١/ ١٦٥. والحجل: الخلخال.

١٥ الزوزني، أبو عبد الله/ شرح المعلقات السبع/ دار القلم- بيروت/ ٢٠٦. لم يكلم: لم يجرح بعيب.

١٦ المثقب العبدي/ ديوانه، جُنة: واق وساتر، والذمم: الحقوق.

١٧ المفضل الضبي/ المفضليات/ ٢٤٣.

١٨ أوس بن حجر/ ديوانه/ تحقيق وشرح: د.محمد يوسف نجم/ دار صادر- بيروت ١٩٦٠/ ٢٦. الخريدة من النساء البكر التي لم تمس قط، وهي الحيّية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة المستترة.الأعراق:جمع عرق وهو الأصل، نمينها:رفعتها في النسب، البرازة: عفة الخلق ووثوق الرأي.

١٩ أوس بن حجر/ ديوانه/ تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم/ دار صادر- بيروت- ١٩٦٠.

٢٠ الطائي، حاتم، ديوانه. اختل: أخادع، وعرس: زوجة، أفعل: هنا بمعنى لا أفعل.

٢١ القرشي، أبو زيد/ جمهرة أشعار العرب/ ص ٢٨٥. واقعات الدهر: نوازله وخطوبه، يفللن: يثلمن، والمبرد هنا الصبر والجلد.

٢٢ القرشي، أبو زيد/ جمهرة أشعار العرب/ ٣٤٤.

٢٣ المهلهل/ ديوانه/ ٨٨.

٢٤ الأعشى/ ديوانه/ ٤٢.

٢٥ عروة بن الورد/ ديوانه/ تحقيق عبد المنعم الملوحي- دمشق/ ٣٠.

٢٦ السقا، مصطفى، مختار من الشعر الجاهلي، ٣٧٦، الجزء الأول، الطبعة الثانية.

٢٧ نفس المصدر، ٤٠٩. أغشى: أزور، فتاة الحي:الجارة، خليلها:زوجها.

٢٨ عبيد بن الأبرص بن حاتم بن عامر وقيل: ابن جشم بن عامر، يتصل نسبه بمضر، من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية، شاعر فارسي سيّد من سادات قومه وفرسانهم المشهورين. "بابتي، عزيزة فوال، معجم الشعراء الجاهليين، ٢١٤، دار صادر، بيروت.

٢٩ كيلاني، محمد سيد، مختار الشعر الجاهلي، ص٥٠، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، ١٩٥٩م./ أعف نفسي: أمنعها عمّا لا يحِّل، الخصاص: الفقر، العرض: ما يدافع عنه الإنسان من أرض أو شرف، الحراص: البخلاء.

٣٠ كيلاني، محمد سيد، مختار الشعر الجاهلي، ٧٠

٣١ الكيلاني، محمد سيد، مختار الشعر الجاهلي الجزء الثاني ص٢٩، الطبعة الأولى، ١٩٥٩.ضَن: بخل، الموالي: جمع مولى وهم الأصدقاء، صحا باطلي: تركت ما يكون من الشباب من أعمال باطله وفي (صحا باطلي) استعارة مكنية، المفرق: موضع فرق الشعر على الرأس، القذال: مؤخرة الرأس خلف الأذن، العاذلين: اللائمين، اقني حياءً: الزمي الحياء.

٣٢ المصدر نفسه، ٢٩. يا صاح: أي يا صاحبي (منادى مُرخَّم)، العذل: اللوم، اللاحي: اللائم، الطرف: العين، باغي: طالب،

طمّاح: مبيد في طلبة، صباحًا: جمع صبيح وهو الجميل، حديث اللغو: حديث الباطل والإثم والضلال.

٣٣ أمية بن أبي الصلت: شاعر جاهلي من رؤساء قريش، نبذ الأصنام ودعا إلى التوحيد، لكنه لما بعث الرسول (ص) كفر به حسدًا، وتوفي في السنة الخامسة للهجرة. WWW.Forum.hawahome.com.

٣٤ شيمتك: طبعك وصفتك، أثنى: مدحه ودعا له بالخير، الثناء: الشكر.

٣٥ الخنساء، اسمها تماضر بنت عمرو بن الحرث ابن الشريد من بني سُلم، اما كلمة الخنساء، فتعني ذات الأنف المتأخر عن أرنبته ومعنى تماضر ذات البياض.

٣٦ شرح ديوان الخنساء، بيروت، لبنان،٥٢، دار مكتبة الحياة. الريبة: الشك.

٣٧ الطائي، حاتم، ديوانه. اختل: أخادع، وعرس: زوجة، أفعل: هنا بمعنى لا أفعل.

٣٨ عادل سليمان جمال ، ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره. صنعة: يحيى بن مدرك الطائي، رواية: هشام الكلبي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢/ ١٩٩٠م=١٤١١هـ: ٨٠. المرجع السابق :٨٠، ديوانه :٣٣.

٣٩ عادل سليمان جمال/ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره. صنعة: يحيى بن مدرك الطائي، رواية: هشام الكلبي/ مكتبة الخانجي بالقاهرة/ ط٢/ ١٩٩٠م=١٤١١هـ/ ص٨٠. ديوانه ص٤١.

٤٠ المرجع السابق ص٨٠، ديوانه :٣٣.

٤١ المرجع السابق ص٨٠، ديوانه: ٤٦.

٤٢ المرجع السابق ص٨٢، ديوانه :٥٥.

٤٣ المرجع السابق ص٨٣، ديوانه:٢٦.

٤٤ المفضل الضبي، المفضليات: ٢٤٣.

٤٥ المفضل الضبي ،المفضليات: ٤٠٢.

٤٦ مهلهل بن ربيعه ، ديوانه، إعداد وتقديم: طلال حرب، دار صادر– بيروت، ط١، ١٩٩٦م :٨٣. العواتق: جمع عاتقه وهي الفتاه أول بلوغها، ثوى: هلك، الحسر: جمع حاسرة وهي المرأة المكشوفة الرأس والذراعين

المصادر والمراجع :

– ابن تيمية، أحمد، أمراض القلوب وشفاؤها، دار النشر: المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية١٣٩٩ م

– ابن منظور، لسان العرب المحيط، ٧٧٥، المجلد الأول، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

– الأفوه الأودي، ديوانه، تحقيق: د.محمد التو نجي، دار صادر– بيروت،ط–١٩٩٨،.

– امرؤ القيس، ديوانه، المعلقة، دار صادر– بيروت.

– أوس بن حجر، ديوانه، تحقيق وشرح: د.محمد يوسف نجم، دار صادر– بيروت– ١٩٦٠.

– البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفري، الأدب المفرد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

– البستاني، كرم، عروة بن الورد والسموأل، دار صادر– بيروت.

– البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

– بكار، عبد الكريم، بصائر في العلم والثقافة، دار الإعلام للنشر، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

- الجزائري، أبو بكر جابر، منهاج المسلم، ص١٤٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٤م، (الحاكم وصححه على شرط الشيخين).

- الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، دار المعارف – مصر.

- حرب، طلال، ديوان الشنفرى، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

- الخوري، خليل، ديوان عنترة بن شداد، سنة ١٨٩٣، مطبعة الآداب–بيروت.

- ديوان علقمة، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، مطبعة الأصيل، الطبعة الأولى، حلب، ١٩٦٩م.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، ١٩٨٧م، دار الكتاب العربي للنشر، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى.

- الراشد، محمد أحمد، أفاق الجمال، دار النشر: دار المحراب للنشر والتوزيع، كندا، سويسرا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية للنشر، تحقيق: مجموعة من المحققين

- الزورني، أبو عبد الله، شرح المعلقات السبع، دار القلم– بيروت.

- السقا، مصطفى، مختار الشعر الجاهلي، الجزء الأول، الطبعة الثانية، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٤٨م.

- السمعاني، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد التميمي الأنساب، دار النشر: دار الفكر، بيروت، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، ١٩٨٨م.

- شرح ديوان الخنساء، بيروت، لبنان، دار مكتبة الحياة.

- طرفة بن العبد، ديوانه، أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب شرح وضبط أ.علي فاعور، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١-١٩٨٦.

- عادل سليمان جمال،ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره. صنعة: يحيى بن مدرك الطائي، رواية: هشام الكلبين مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢، ١٩٩٠م=١٤١١هـ.

- عروة بن الورد، ديوانه، تحقيق عبد المنعم الملوحي-دمشق.

- عنترة بن شداد، ديوانه، تحقيق عبد المنعم الملوحي-دمشق.

- فرحات، يوسف شكري، ديوان الصعاليك، دار الجيل- بيروت، ٢٠٠٤.

- القرافي، أحمد بن إدريس، أنوار البروق في أنواع الفروق، دار النشر: دار عالم الكتب.

- القرشي، عبد الله سليم، بناء الأخلاق، دار القاسم للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

- كيلاني، محمد سيد، مختار الشعر الجاهلي، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، ١٩٥٩م.

- اللّحام، محمد سعيد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

– الماروديِ، علي بن محمد بن حبيب، أدب الدنيا والدين، دار النشر: دار مكتبة الحياة .

– المفضل الضبي، المفضليات، شرح: د.محمد حمود، دار الفكر اللبناني– بيروت/ ط١–١٩٩٨م.

– مهلهل بن ربيعه، ديوانه، إعداد وتقديم: طلال حرب، دار صادر– بيروت، ط١، ١٩٩٦.

– النابغة الذبياني، ديوانه، تحقيق وشرح كرم البستاني، دار صادر– بيروت.